خطبة صلاة الجمعة 24/ 4/ 2015 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(تحمل المسؤولية)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: 90].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (هَذِهِ أَجْمَعُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ لِخَيْرٍ يُمْتَثَلُ، وَلِشَرٍّ يُجْتَنَبُ).

روى الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**مَا مِنْ شَيءٍ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الخُلُقِ لَيبلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِب الصَّوم وَالصَّلاةِ**» [الترمذي].

أيها الإخوة:

هذه هي الخطبة الرابعة عشرة في سلسلة خطب عنوانها (**فضيلة... أخلاق تعاملية**)، بإمكانك التدرب على الخلق الحميد لتكتسبه، وبإمكانك التخلي عما علق بك مما لايليق بمثلك. وهذا هدف السلسلة.

عنوان خطبة اليوم: (**تحمل المسؤولية**)

- وزع قاضٍ شرعي في بلد عربي، استبانة على شريحة عشوائية من الأزواج مؤلفة من مائتي زوج ومائتي زوجة، يسأل الأزواج فيها:

- ما أول حاجة يريدها الزوج من زوجته؟ وما ثاني حاجة يريدها، وما ثالث حاجة يريدها، وما آخر ما يريده الزوج من زوجته؟

وأسئلةً مماثلة للزوجات:

- ما أول حاجة تريدها الزوجة من زوجها؟ وما الثانية والثالثة ثم ما آخر ما تريده الزوجة من زوجها؟

واقترحَتْ الاستبانةُ إجاباتٍ محدَّدة تُختار وتُرتَّب من قبل المشاركين.

أشارت النتائج إلى أن أكثر من 90% من الزوجات قلن: إن أول ما تريده المرأة من زوجها **تحمل المسؤولية**.

وإلى أن أكثر من 90% من الرجال قالوا: إن أول ما يريده الرجل من زوجته الاهتمام بالبيت، وهو **نوع من أنواع تحمل المسؤولية**.

- راجع أحمد عيادة طبيب الأسنان لمعالجة ألم شديد في ضرسه، وبينما كان الطبيب ينزع لأحمد عصبَ السِّن كُسِرت الأداة ضمن أقنية الجذر، لم يرد الطبيب أن يتحمل مسؤولية عمله فأخفى الأمر عن المريض الذي بقي يتألم من ضرسه أسابيع طويلة ثم احتاج إلى قلعه، علماً أنه خطأٌ يَرِدُ في عيادة طبيب الأسنان، وكان بإمكان الطبيب أن يتحمل مسؤولية الفعل ليصار إلى علاج الأمر عند اختصاصين حيث أمكن ذلك.

تحمل المسؤولية

- لحظ الأستاذ هاني أن دخله الشهري لم يعد يكفي متطلبات أسرته المتزايدة، ورأى منهم طلبات مادية لا تتناسب مع مستوى دخله، فقرر أن يحمِّل مسؤولية الإنفاق على الأسرة في كل شهر إلى واحد من أفراد الأسرة، بحيث يعطي الأستاذ هاني دخله في مطلع الشهر الأول إلى ابنه الأول ويكلفه بالإنفاق على أن يكون الابن مسؤولا عن تأمين الموازنة بين الدخل والخرج طيلة الشهر، وهكذا فعل مع ابنته في الشهر الثاني ثم مع زوجته في الشهر الثالث، وأخبرني أنه بتحميلهم مسؤولية تأمين الموازنة بين الدخل والخرج حَمَلهم طوعاً على الاختصار من المتطلبات الزائدة. **تحمل المسؤولية**

- أرسلت أم خالد ابنها الصغير ليشتري لها اللبن الرائب من عند البقالة، وبينا كان عائداً إلى المنزل زلَّت قدمه على درج البناء فانسكب شيء من اللبن على الدرج، وصل الابن إلى البيت

باكياً وأعلم أمه الأمر، فنزلت معه ليمسحا درج البناء الذي اتسخ بفعلهم، تعلمه تحمل المسؤولية.

- اشترى وائل مُسجِّلاً جديداً ولما مضى إلى بيته تفاجأ بعطبه في اليوم الثاني فعاد به إلى البائع ليعلمه الأمر ويطلب تبديلها أو استرداد ثمنها، فصرخ البائع وزمجر وزبد ورعد وأعلن أنه غير مسؤول عنها بعد إذ خرجت من متجره، علماً أنه تبين له أن فيها عيباً قديماً، لكنه أصر على الهروب من تحمل المسؤولية.

أيها الإخوة:

تعلمون أن شريعة الإسلام جاءت بتكليف الإنسان وجعلِه مسؤولاً ليكون خليفة في الأرض يعمرها بالصالحات فينالَ الجنة والدرجات.

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72]

قال ولي الله الدهلوي: (المرَاد بالأمانة تقلد عُهْدَة التَّكْلِيف بِأَن تتعرض لخطر الثَّوَاب وَالْعِقَاب بِالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَة، وأفاد القرآن بحمل الْإِنْسَان قابليتَه واستعداده لَهَا.

وقوله تَعَالَى: ﴿إِنَّه كَانَ ظلوماً جهولاً﴾ خرج مخرج التَّعْلِيل؛ فَإِن الظلوم من لَا يكون عادلاً، وَمن شَأْنه أَن يعدل، والجهول من لَا يكون عَالماً، وَمن شَأْنه أَن يعلم، وَغير الْآدَمِيّ إِمَّا عَالم عَادل لَا يتَطَرَّق إِلَيْهِ الظُّلم وَالْجهل كالملائكة، وَإِمَّا لَيْسَ بعادل وَلَا عَالم وَلَا من شَأْنه أَن يكسبها كَالْبَهَائِمِ، وَإِنَّمَا يَلِيق بالتكليف، ويستعد لَهُ من كَانَ لَهُ كَمَال بِالْقُوَّةِ لَا بِالْفِعْلِ).

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30].

وبكَّر الإسلام –أيها الإخوة، كما تعلمون– بتحميل الإنسان التكاليف لتبدأ المسؤولية الشرعية ببلوغه عاقلاً أي في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره أو عمرها على الغالب.

ويستمر التكليف وتحميل المسؤولية مادام القلب يخفق والعقل يعمل.

ولئن كانت النظم الوضعية تريد تأخير سن المساءلة إلى الثامنة عشرة، وتريد بالمقابل نزع التكاليف عن الإنسان في سن التقاعد أو الشيخوخة، فإن الإسلام لايزال يدعو معتنقه إلى عمارة الأرض من البلوغ إلى أن يغرغر.

ذلك لأن تحمل المسؤولية سِرُّ الحياة وعنوان التقدم، وذلك لأن تحمل المسؤولية ثمن الاستخلاف في الأرض، وذلك لأن تحمل المسؤولية أفضل هدية يقدمها الآباء للأبناء.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: « **كلكم راعٍ وكلكم مسئولٌ عن رعيته؛ الإمام راعٍ ومسئولٌ عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسئولٌ عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده ومسئولٌ عن رعيته، وكلكم راعٍ ومسئولٌ عن رعيته**».

ومن صور المسؤولية:

مسؤولية الرجل في بيته بالنفقة والقوامة، ومسؤولية المرأة في بيت زوجها بطاعته وحفظ بيته، ومسؤولية المعلم بإحاطة طلابه بالحفظ والتربية والتعليم، ومسؤولية رجال الإعلام بتقديم النافع للناس، ومسؤولية الإمام تجاه الرعية بإحاطتهم بعنايته ورحمته وبره، ومسؤولية الرعية تجاه الإمام بطاعته ولزوم أمره، ومسؤولية الدعاة بنشر الخير وغرس البر، ومسؤولية العامل في الوظائف العامة والخاصة بحفظ مصالح الخلق ومراقبة الخالق، ومسؤولية التكاليف الشرعية بأداء الفرائض والمندوبات وترك المحرمات.

ومن صور التخلي عن المسؤولية:

- اختلاط الأدوار بين النساء والرجال: فتجد المرأة تخرج باكرة لتعمل وتكدح، وزوجها أو أخوها يتوسد الكسل واللامبالاة.
- التردي الأكاديمي: وفيه نقرأ تقصير عدد من دكاترة الجامعات عن مسؤولياتهم التعليمية والتربوية وتقصير عدد من الطلبة عن مسؤولياتهم التحصيلية.
- ارتفاع نسب الطلاق: وفيه مؤشر على التقصير في التأهيل لتحمل المسؤوليات الزوجية.
- المخدرات: وهي من أبرز مظاهر التخلي عن المسؤولية، إذ يعتقد متناولها أن أنجع وسيلة لحل المشكلات هي الهرب منها إلى عالم المجهول.

ختاماً أيها الإخوة:

إذا كان الحديث عن تحمل المسؤولية بهذا الحجم المهم **فكيف نعزز خلق تحمل المسؤولية فينا؟**

1- الإكثار من ذكر الله: لأن الذكر يبقي الذاكر قريباً من المذكور فيحمل تكاليفه بانشراح صدر ورغبة، ولأن الذكر يعزز التوكل على الله واستمدادَ العون منه، ومن أعانه اللهُ قَوِيَ.

لما أمر الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون لدعوته إلى الحق، وما أدراك ما فرعون، قال تعالى: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: 42 - 46].

قال القشيري في تفسيره: (تعلّل موسى عليه السلام لما أرسله الحقّ إلى فرعون بوجوه من العلل مثل قوله: ﴿يَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي﴾، ﴿إِنِي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾، ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾.

فقال الله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾، فاستقلَّ موسى عليه السلام بذلك، وقال: الآن لا أبالي بعد ما أنت معي.

2- مصاحبة أصحاب الهمم العالية: إذ تسري من روحهم إلى روحك ما يدفعك لتلحق بركبهم، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119].

3- التبصير بالمسؤوليات والتعريف بالتكاليف، وتصحيح المفاهيم الخاطئة التي يغرسها الجهلة أو المثبطون في وعي الناس بأن الحياة لهو ولعب، عبث وتسلية، شهوات ولذات ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115] ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105].

4- مكافأة من يتحملون مسؤولياتهم بنجاح، والتنويه بدورهم وتقديم الجزاء الأوفى لهم.

5- تدريب الأبناء على تحمل المسؤولية والقيام بمهامهم التي تتناسب مع أعمارهم وتبغيض الاتكالية إليهم.

ومن أجل هذا التدريب قل لابنك ماذا يفعل، ثم أره كيف يفعل، ثم دعه يحاول، ثم راقب عمله وشجعه، ثم صَوِّب الخطأ وادعم الصواب.

أيها الإخوة:

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: 24] توجيه قرآني يدعونا لتحمل المسؤولية.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36] توجيه قرآني يدعونا لتحمل المسؤولية.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: 92، 93] توجيه قرآني يدعونا لتحمل المسؤولية.

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: 6] توجيه قرآني يدعونا لتحمل المسؤولية.

فلنجهد أن نؤدي ما علينا، وأن نسأل الله العون، إنه نعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله رب العالمين